

ملامح الفلسفة و المنطق في تفسير الكشّاف

Features of philosophy and logic in the interpretation of Al-Kashshaf

الأستاذة / فتيحة بن علجية *

قسم اللغة و الأدب العربي جامعة باجي مختار عنابة

صندوق بريد 12 – عنابة 23000 الجزائر

benaldjia-fatih@univ-eltart.dz

تاريخ النشر: 2026-06-09

تاريخ القبول: 2026-05-12

تاريخ الاستلام: 2026-04-18

ملخص:

طالت ألسنة الفلسفة و المنطق مختلف العلوم و المعارف، فلم يسلم منها حتى تفسير القرآن الكريم الذي اخترنا أن يكون الكشّاف أنموذجاً لدراسته، كيف لا، و صاحبه "الزمخشري" عالم اللغة و النحو، ملقب بـ "إمام المفسرين"، لا شيء إلا لكونه تفرّد فيه بمنهج لم يطرقه أحد قبله و لا بعده ارتكز فيه على دعامة فلسفية و بأسلوب منطقي لم يسبقه إليه أحد من المفسرين. و من هنا فإن دراستنا تهدف إلى كشف النقاب عن المنهج الجديد و المتفرّد الذي اتبعه "الزمخشري" في تأليف تفسيره، "أين سنعرض للعديد من النقاط الهامة من مثل :

من أين استقى الزمخشري مادة الكتاب ؟ وماهي المظاهر التي ميّزته عن باقي التفسير ؟ إلى أي مدى استوعب الزمخشري الفلسفة و المنطق ؟ وفيما تجلّت مظاهر استيعابه لهما و أخذه عنهما ؟ ثم ما هو المنهج الجديد الذي اعتمده في طرح المفاهيم والمصطلحات اللغوية منها و الفلسفية ؟

الكلمات المفتاحية: المنهج، الفلسفة و المنطق، الاعتزال، المصطلحات و التعريفات الفلسفية و اللغوية .

Abstract :

The tongues of philosophy and logic have extended to various sciences and fields of knowledge, sparing not even the interpretation of the Holy Quran, which we have chosen to study using Al-Kashshaf as a model. How could it be otherwise, given that its author, Al-Zamakhshari, was a scholar of language and grammar, nicknamed "The Imam of Commentators," solely because he uniquely employed a methodology that no one before or after him had explored, relying on a philosophical foundation and a logical approach unprecedented among commentators. Therefore, our study aims to unveil the new and unique methodology that Al-Zamakhshari followed in writing his commentary, where we will address several important points, such as:

- From where did al-Zamakhshari draw the material for his book? What features distinguished it from other commentaries?
- To what extent did al-Zamakhshari grasp philosophy and logic? In what ways was his understanding and application of them manifested? And what new methodology did he adopt in presenting linguistic and philosophical concepts and terminology?

Keywords: Methodology, Philosophy and Logic, Mu'tazilism, Philosophical and Linguistic Terms and Definitions.

*المؤلف المرسل: فتيحة بن علجية

- مقدمة :

نال موضوع تأثر اللغة و التّحو العربي بالفلسفة والمنطق عناية فائقة ، فكتب فيه العديد من العلماء والباحثين من أهل الاختصاص وغيرهم فكان لكل واحد منهم طريقته ونهجه الخاص في ذلك، انطلاقا من رؤيته الخاصّة ومفهومه للتأثير والتأثر القائم بينهما الذي بقي في تأرجح بين القدماء والمحدثين فطالت ألسنته أعظم خطاب على وجه هذه المعمورة، ألا وهو **الخطاب القرآني** من حيث تأويله وتفسيره. وفي إطار محاولات تفسير القرآن الكريم وتأويله يندرج تفسير "**الكشّاف عن حقائق التنزيل** و**عيون الأقاويل** في وجوه التأويل" المشهور بـ "**تفسير الكشّاف**" لصاحبه "**أبي القاسم الزمخشري**" عالم اللغة والنحو. و بناء عليه فإنّ إشكالية موضوعنا تتمحور أساسا فيما للصّناعة المنطقيّة والثّقافة الفلسفيّة من دور هام في توضيح المسائل النّحوية لكثير من الخطابات التي تشكل مصدر خلاف بين النّحاة و اللغويين ، و خاصة ما تعلق منها بالقرآن الكريم الذي تعدّدت تفاسيره و اختلفت الآراء في فهم معانيه و وصف تراكيبه و تأويلها، و كان تفسير الكشاف خير مثال على ذلك ، لأن الدراسات السابقة له لم تعتنِ فيه بالجوانب الفلسفية و المنطقية قدر اهتمامها بالجوانب اللغوية و البلاغية . و إذا كان ذلك كذلك فيلبي أي مدى وظف الزمخشري ثقافته الفلسفية و معرفته بالمنطق في تفسير آيات القرآن الكريم و سُوره لتحقيق الهدف من كتابة وهو الكشف عن وجوه تأويل تلك الآيات و إثبات مطلق صحتها ؟ و منه أطلق على تفسيره صيغة المبالغة (الكشّاف) ليكون كشفاً للحقائق المطلقة التي ينطوي عليها كتاب الله العزيز الحكيم .

و انطلاقا من هذه الإشكالية فإنّا نروم تحقيق جملة من الأهداف أهمها إبراز قيمة الزمخشري ومكانته بين العلماء؛ فهو إضافة إلى كونه أديبا ولغويا ونحويا وبلاغيا دون منازع هو أيضا مفسّر شهير اتّخذ من النحو وسيلة لفهم كتاب الله و إدراك معانيه و

دلالاته، متخذاً لنفسه منهجاً جديداً في كشفه تفرد به عمّن سبقه من مفسري القرآن الكريم، محاولين إبراز بعض إسهاماته النحوية و ما تخللها من نزعة و أفكار فلسفية منطقية في منظومته الاصطلاحية و التعريفية.

هذا ما ستكشفه الصفحات الموالية بإذن الله تعالى، لكن قبل ذلك ينبغي إعطاء لمحة عن "الكشاف"

- (1) التعريف بالكشاف:

- أولاً: وصف عام للكتاب:

"الكشاف" اختصار لتسميته الشائعة "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل". هو من أشهر كتب الزمخشري و أهمّها، و قد تبوّأ مكانة رفيعة عند أهل العلم، فوقفوا معه وقفات متعددة ما بين وصف لمحاسنه و جوانب نبوغ صاحبه فيه، على الرغم مما احتواه من الاعتزاليات و تجاوزات "الزمخشري" فيه على بعض الفرق، حتى عُرف به قيل عنه "صاحب الكشاف"

- ثانياً: مادة الكتاب :

كان الزمخشري غزير الثقافة، واسع الاطلاع، ملماً بعلوم عصره، مطلعاً على ما أُلّف قبله من مصنفات في مجالات التفسير و القراءات، و الحديث و الفقه و غيرها، و لا شك أنه حفظ الكثير من تلك المصنفات و سخرها لخدمة مؤلفاته عامة، و تفسيره خاصة، لأن له مكانة خاصة عنده.

و قد تعدّدت مصادر الكشاف و تنوعت ما بين مصادر التفسير ⁽¹⁾، و القراءات ⁽²⁾، و الحديث ⁽³⁾، و اللغة و النحو ⁽⁴⁾، و الأدب ⁽⁵⁾، و كذا الوعظ و الأساطير ⁽⁶⁾

- ثالثاً: منهج التأليف:

كان "الكشاف" حصيلة مجموعة من التفاسير السابقة عليه. وقد أشيع أنه "تفسير بلاغي" ذلك أن صاحبه ركّز فيه على الجانب البلاغي تركيزاً عظيماً حيث شرح الكلمات

شرحاً لغوياً يوضح المعنى البلاغي و الإعجاز القرآني ، كما أنه كان يكثر من ذكر القراءات، متعرضاً لها بالجرح و النقد. (7)

ثم إنّ الزمخشري لم يتبع نهجاً واحداً بلاغياً المنحى في تفسيره لجميع الآيات التي تحوي نكت بلاغية بل نبّه على بعضها حيناً، و أسهب في توضيحها حيناً آخر ، و هذه النكت البلاغية تدخل في أحد الإطارين :

الأول : إطار فكري متأثر بانتماء الزمخشري الاعتزالي .

الثاني :إطار جمالي خالص ،عمد الزمخشري من خلاله إلى إظهار جماليات بعض الصور والتشبيهات و التخيلات القرآنية.

و هو في ذلك كلّه يراوح بشكل واضح في مدى تعمقه القضية المدروسة حيث كان يتعمق في دلالة الكلمة المذكورة حيناً، و التعبير أو التركيب حيناً آخر ، وكان يطلّ منهما على معان وجدانية في أحيان كثيرة . و في تلك المعاني يصدر عن نفسه تارة و يقف عند البعد الوجداني للمتلقى تارة أخرى . (8)

هذا ، و قد برز في تفسير الكشف احتكام الزمخشري إلى النحاة البصريين و الكوفيين (9) والأخذ بأرائهم تارة ، و إبراز معظم مخالفاتهم تارة أخرى و لم يسبقه أحد إلى مثل هذا المنهج؛ فقد ترك التفسير بالمأثور و استبعد الإسرائيليات ، و جنح إلى بيان الوجه البلاغي في القرآن الكريم ، و اهتم بالمعنى أيّما اهتمام حتى وصل به الأمر أحيانا إلى الخروج عن القواعد النحوية ، و اشتقاق قواعد جديدة خاصة به حتى و إن خالفت السماع و القياس . (10)

وقد ألفينا الزمخشري لا يكثر من قضايا و مسائل البيان و المعاني إشفافاً منه على أهل زمانه لعجزهم عن استيعابها ، فتفسير القرآن يتطلب البراعة في "علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني و علم البيان" (11)

وما ميّز أسلوب الزمخشري في كشّافه هو اتباعه طريق السؤال و الجواب (أسلوب الفنّقة) أثناء شرحه لآي القرآن الكريم بإيراد عبارة "فإن قلت قلت" وقد بدا ذلك جليّا في كامل تفسيره بحيث لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات "الكشاف" (12) و قد اعتنى الزمخشري في كشّافه بالسماع و اعتد به (13)، كما أخذ بالقياس أيضا (14) وعمل على إخضاع كلام العرب له.

فضلا عن ذلك، نجد أنّ الزمخشري يكثر من الشواهد المختلفة من آيات قرآنية (15)، أحاديث نبوية (16)، قراءات (17)، شعر (18)، نثر (19) وكذا لغات العرب (20). ثم إنّ الزمخشري ارتكز في كشّافه على دعامة فلسفية منطقية خلافا لمن سبقه من اللغويين و المفسرين، و هو ما سنوضحه في الصفحات الموالية .

2- المنظومة المصطلحية :

عمد الزمخشري في كشّافه على غير عادة اللغويين و النحاة إلى إيراد العديد من المصطلحات الفلسفية منها:

أ- الجنس: Genre

لم يعتمد "الزمخشري" إلى تعريف هذا المصطلح الفلسفي المحض تعريفا صريحا كما فعل أهل الفلسفة والمنطق، لكنّ المتأمل في الكشّاف سيجد له سياقات عدة منها ما أورده "الزمخشري" في قوله بأن "الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر" (21)

ومن هنا فإنّ الإثم جنس و الكبائر و الصغائر أنواع له و فروع. وهكذا يمكن القول بأنّ نظرة "الزمخشري" لمصطلح "جنس" لم تختلف عن نظرة الفلاسفة في كونه شيئا عاما يضم تحته أشياء كثيرة، فهو لفظ كلي يقال على كثيرين مختلفين، تندرج تحته أسماء كلية تُعرف بالأنواع .

ب- (الشبهة : Amphibolle)

وبمرادفه الباطل و الريب. (22)

Soul : (ج) النفس

نفس الحياة (23)

Substance : (د) الجوهر:

تعاريف غيره أمثال الفارابي الذي حده بالإنسيّة⁽²⁶⁾

- (4) المنظومة التعريفية :

وظف الزمخشري في كشفه العديد من التعريفات المنطقية منها على سبيل المثال التحديد بالجنس والفصل في العديد من المصطلحات والمفاهيم اللغوية أهمها أقسام الكلام الثلاثة على النحو الآتي:

- أ) التحديد بالجنس و الفصل في الاسم :

احتفى "الزمخشري" في تفسيره بعدة أصناف للاسم مركزا فيها على التحديد بالجنس و الفصل نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

المبتدأ النكرة: عرفه الزمخشري بأنه إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيرها، أما إذا تقدم على خبره الواقع ظرفاً فإنما لاختصاص ذلك المبتدأ بالصفة، وكأنه عُرفَ بها مثلما يتعرّفُ بال التعريف و بالإضافة .

ألا ترى أنّ تعريف المبتدأ ذاك تعريف منطقي محض لوجود ركيّزي الجنس والفصل فيه؛ أمّا الأوّل فيتمثل في لفظة "النكرة" لأنّ المبتدأ منه ما هو معرفة، ومنه ما هو نكرة، و أمّا الفصل فيتمثل تحديدا في قول "الزمخشري" بوجوب تأخير ذلك النوع من المبتدأ في حال ورود خبره ظرفا، و أنّه قد يتقدم لمقارنته المعرفة . و بوجود هذين العنصرين الأساسيين في هذا التعريف نقول إنه تعريف بالحدّ التام .

- ب) التحديد بالجنس و الفصل في الفعل:

قسم "الزمخشري" "الفعل" قسمة ثنائية من حيث: الزمن و التعدية ، مع ملاحظة ذلك الاختلاف البين بينهما، فهو في القسمة الأولى لم يُصرّح بالقسمة الثلاثية للفعل، فجاء حديثه عنها بطريق الإيماء فقط و ذلك في معرض حديثه عن الإضافة إلى اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۚ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ۚ ﴾ (27)، ذاكرا بأن معنى الإضافة في هذه الآية غير المضىّ وإنما هو الدلالة على جعلٍ مُستمرّ في

الأزمنة المختلفة، وكذلك فَالِقُ الْحَبِّ و فَالِقُ الْإِصْبَاحِ كما تقول: الله قادر عالم، فلا تقصد زماناً دون زمانٍ (28). ففي هذا القول يتجلى التحديد بالجنس و الفصل؛ أمّا الجنس فيتجلى أولاً في خروج الفعل للدلالة على الزمن، و كذا دلالة الإضافة إلى اسم الفاعل ثانياً، في حين ينحصر الفصل في خروج دلالة اسم الفاعل إلى الزمن المستمر لا المضى. هذا عن القسمّة الأولى للفعل، أما قسمته من حيث التعدية فقد أطلال الزمخشري الحديث فيها مفرعاً إياه إلى فرعين: التعدية بواسطة و بغير واسطة. و التعدية الأحادية والثنائية. (29)

- ج) التحديد بالجنس و الفصل في الحرف:

اعتمد "الزمخشري" هذا النوع من التحديد أثناء قسمته للحرف فذكر مثلاً بأنّ النداء منه القريب و منه البعيد؛ أمّا النوع الأوّل "فله "أي" و "الهمزة"، ثمّ استعمل في مناداة مَنْ سَهَا و غَفَلَ و إِنَّ قُرْبَ. تنزيلاً له منزلة مَنْ بَعْدَ، فإذا نُودِيَ به القريب المُفَاطِن فذاك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه مَعْنَى به جداً " (30) فالجنس في هذا التعريف ينحصر في لفظة "القريب"، و لها من الحروف "أي" و "الهمزة"، أمّا قوله باستعمال دَيْنِكَ الحرفين في مناداة الساهي و الغافل تنزيلاً له منزلة البعيد، أمّا إذا نُودِيَ بهما القريب الفَظَن الصّاحي فما ذلك إلا للتأكيد، و هذا هو الفصل لأنه بمثابة مقومات ذاتية لنداء القريب. أمّا نداء البعيد فله حرف "يا": الموضوع له أصلاً، وهو "صوت يهتف به الرجل بمن يناديه" (31) وهذا القول بدوره مرتكز على دعامتي:

- الجنس: و المتمثل في أنّ "الياء" عبارة عن صوت لا غير، وهو لنداء البعيد.
- الفصل: و المتمثل أساساً في كون ذلك الصوت موضوعاً للهُتاف و المناداة فقط و لا شيء غيره.

- خاتمة :

كان "الزمخشري" نحويا متخصصا كما كان فيلسوفا منطقيا متأثرا بـ "أرسطو" و
 بمن تبعه من المناطق العرب باعتماده دعامة فلسفية منطقية في كشفه تجلت بوضوح في
 توظيفه العديد من المصطلحات الفلسفية و تطبيقه الكثير من المفاهيم المنطقية على
 الجوانب اللغوية على غرار التعريف المعتمد عند المنطقة، وهو "التعريف بالقسمة
 "كقسمة الكلام إلى: اسم وفعل وحرف، إضافة إلى التحديد بالجنس والفصل في كل نوع
 من الأنواع السابقة، مرتكزا في ذلك كله على أسلوب الفنقلة، وهو ما تفرد به عن كل من
 سبقه من المفسرين .

هذا من الناحية الفلسفية المنطقية، أما من الناحية اللغوية فد ارتكز الزمخشري على
 التعريف بالضد و المرادف لما لهما من أهمية بالغة في عملية الحفظ و الترسيخ، مثلما هي
 الحال مع التعاريف الفلسفية السابقة. و هذا يكون الزمخشري قد زواج بين التهجين
 :اللغوي النحوي والفلسفي المنطقي .

1. انظر : الزمخشري ، الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، طبعة جديدة ، حَقَّقَهَا و خَرَّجَ أحاديثها و علَّقَ عليها على نسخة خطِّية د/ عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي و مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 01 ، 2016 ، ج 01 ، ج 02 ، ج 03 . ج 04 ، ص 45 .
2. المصدر نفسه ، ج 01 ، 163 ، ج 02 ، ص 68 ، 549 .
3. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 44 ، ج 02 ، ص 220 ، ج 03 ، ص 426 .
4. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 43 ، ج 04 ، ص 288 .
5. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 42 ، ج 04 ، ص 101 .
6. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 445 ، 321 .
7. سالم نادر عطية ، الزمخشري و جهوده في النحو ، دار جرير للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 01 ، 2010 ، ص 30 .
8. سماء محمودي الخالدي ، الزمخشري ناقدا ، سماء محمود الخالدي ، الزمخشري ناقدا ، دراسة في شواهد الكشف الشعرية على الأساليب التركيبية ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، (دط) ، 2004 ، ص 55 .
9. انظر : الكشف ، ج 01 ، ص 217 ، ج 02 ، ص 369 ، ج 04 ، ص 606 .
10. شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 08 ، (د.ت) ، ص 286 .
11. الكشف ، ج 01 ، ص 43 .
12. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 586 ، ج 02 ، ص 344 ، ج 03 ، ص 83 ، ج 04 ، ص 350 .
13. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 132 .
14. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 472 ، ج 02 ، ص 336 ، ج 03 ، ص 467 ، ج 04 ، ص 31 .
15. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 643 ، ج 03 ، ص 486 .
16. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 502 ، ج 02 ، ص 281 ، 519 ، ج 03 ، ص 517 ، 542 .
17. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 269 ، ج 02 ، ص 562 ، ج 03 ، ص 517 ، ج 04 ، ص 823 .
18. المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 164 ، 380 ، ج 02 ، ص 344 ، ج 03 ، ص 41 ، 392 ، ج 04 ، ص 726 .

19. المصدر نفسه، ج 01، ص 447، ج 02، ص 610، ج 03، ص 297، ج 04، ص 51.
20. المصدر نفسه، ج 01، ص 159، 531، ج 02، ص 441، 652، ج 03، ص 15، 118.
21. الكشف، ج 04، ص 426.
22. الكشف، ج 01، ص 75، 78.
23. الكشف، ج 01، ص 97، ج 04، ص 133.
24. الكشف، ج 01، ص 92.
25. الكشف، ج 01، ص 92.
26. الفارابي، كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق وتعليق: محمد مهدي، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 02، (د.ت)، ص 45.
27. سورة الأنعام، الآيتان 95، 96.
28. الكشف، ج 02، ص 47.
29. الكشف، ج 01، ص 57، ج 02، ص 506، ص 56، ج 04، ص 580.
30. الكشف، ج 01، ص 121.
31. المصدر نفسه، ص 121.